كتاب الشهر

مجتمعنا الشرقي وتأثيره في شخصية الطفل
كريستين نصار: نظامنا التربوي أمام التحدي الكبير

في كتاب "واقع التربية في المجتمع الشرقي المعاصر"، تواصل كريستين نصار اشتغالاتها وحفرياتها في بنية المجتمع اللبناني المعاصر، وتأثيره في شخصية الطفل الذي يتربى فيه

كيف هو النظام التعليمي في الغرب المتقدم؟ هل تؤخذ في الاعتبار خلفية التلميذ الثقافية والاجتماعية، الى جانب تاريخه الشخصي الذي قد يتخلله العديد من المشكلات الاسرية؟ كيف يتم تحضيره لمواجهة تحديات الحياة المهنية، خصوصا في ظل معطيات الحياة العصرية، المتزايدة في التعقيد؟ ما هي الاسلحة التي يمكن للمدرسة والنظام التربوي توفيرها من اجل بناء مواطن كفوء ومندمج في محيطه؟ ما هي الاساليب التربوية المثلى التي توصلت اليها اخر الدراسات والاختبارات النفسية والعلمية في الغرب؟ ماذا عن واقع التربية في مجتمعنا الشرقي المعاصر؟...

كل هذه الاسئلة تقع في صلب كتاب كريستين نصار الجديد "واقع التربية في المجتمع الشرقي المعاصر ـ دور المعلم في خفض حدة الاضطراب النفسي عند الطفل" ("شركة المطبوعات للتوزيع والنشر"). تبدو الاختصاصية النفسية والاكاديمية اللبنانية، مشغولةً ببنية مجتمعنا الشرقي المعاصر وتاثيره في شخصية الطفل الذي يتربى فيه. فبعد مجموعة اعمال من بينها سلسلة "الاقارب والطفل في المجتمع الشرقي المعاصر"، و"كيف نتعامل مع اولادنا اليوم" وغيرهما، ها هي تحفر في المكان ذاته، بنية تشريح التركيبة المعقدة لمجتمعنا الشرقي. ما تخرج به من خلاصات في كتابها الجديد، قد يشكل صدمة لكل فرد معني ببناء مواطن يقظ يتمتع بحس نقدي ومخيلة ابداعية ستكون وحدها سلاحه في القادم من الايام. فما تظهره التطورات التكنولوجية والعلمية، تجعلنا نتيقن بان البقاء سيكون لصاحب الفكر الخلاق بلا شك.

صحيح ان كتابها يشرح واقع التربية في مجتمعنا الشرقي، والبنية التربوية برمتها، ويتوقف طويلا عند دور الاستاذ في عملية البناء هذه. الا ان ذلك لا ينفي ايضا الدور الفعال الذي يستطيع الاهل والعائلته تأديته في خضم هذه العملية. رغم ان الصورة النهائية لواقع التربية اليوم قد تبدو سوداوية بعض الشيء، الا ان الباحثة تؤكد على تمتع هذا البلد الصغير بكفايات كبيرة، خصوصا على مستوى التلامذة، ما يطمئن الى الغد، على رغم الثغر الكبيرة التي يعاني منها نظامه التربوي وفق الباحثة التي نالت شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون.

قسمت نصار كتابها الى ثمانية فصول، فندت فيها واقع التربية في الماضي والحاضر، ومقومات التربية المعاصرة، وتطوير هذه المقومات تماشيا مع تطور مجالات المعرفة العامة، وماهية التربية وكنه دور المعلم، والتربية البناءة والصحة الذهنية، والطفل والمدرسة والمعلم والاهل، والتربية في مجتمعنا الشرقي المعاصر من خلال اتخاذ لبنان نموذجا، الى جانب دور المعلم في خفض الاضطراب النفسي لدى الطفل. تشدد الباحثة على اهمية التربية التي "تتمثل في كونها تحافظ على اللغة، والقيم الثقافية، والدين والتاريخ المشترك (...) بمعنى انها حجر الزاوية في تكوين الفرد كي يصل الى ما يصل اليه من تراكمات تربوية بجوانبها المختلفة، لان شخصية الفرد تتكون بمقدار ما يوجد لديها من مداخلات تربوية". قبل الدخول في واقع التربية المعاصرة، كان لا بد من تقديم لمحة تاريخية عن النظريات التربوية وتطورها. هذا ما فعلته المؤلفة التي خصصت الفصل الاول من كتابها لهذه الاستعادة التاريخية منذ زمن ارسطو الى اليوم، مرورا بروسو الذي هزت اراؤه التحررية والتقدمية بالنسبة الى مفاهيم عصره الكثير من الجدل. فالفيلسوف الفرنسي (1712 ـ 1778) اعتبر التربية مجالا يساعد الطفل على الانفتاح، ورأى ان دور المعلم يقتصر على دور البستاني الذي يساعد على بلورة الامكانات الطبيعية وبذل كل الجهود "من طريق عدم قيامه باي شيء". بمعنى اخر، ينبغي للمعلم تأمين افضل الشروط التي تساعد الطفل على النمو لا اكثر. جاء ذلك في زمن كان فيه النظام التربوي يروض الطفل ويدربه على الطاعة والنظام والاحترام والانحناء امام رموز السلطة بمختلف اشكالها.

تعتبر المؤلفة هنا ان رواد التربية الحديثة على رأسهم روسو، ساهموا بشكل كبير في دفع عجلة التطور على مستوى التربية، اذ ادركوا باكرا "ارتباط الانفتاح النفساني عند الفرد وقابليته للتطور، ارتباطا وثيقا بمشكلة تحرير المجتمع كله".

بعد مقاربتها بشكل مفصل التيارات والمدارس التربوية، ودخول علم النفس عنصرا اساسيا وحاسما في تطورها واتخاذ شكلها اليوم، تخلص الباحثة الى ان "التربية في القرن الحادي والعشرين، يجب ان تهدف الى تكامل شخصية الانسان لتعزيز احترام حقوقه وحرياته الاساسية، وتعزيز التفهم والتسامح والصداقة بين الامم والمجموعات العرقية والدينية" وفق ما جاء في الاعلان العالمي لحقوق الانسان. تتوقف طويلا عند النظام التعليمي في لبنان والمجتمع الشرقي. نظام كلاسيكي يفرض على الطفل الطاعة العمياء، وتلقي معلومات قد يكون عقله عاجزا عن استيعابها في سنه. هنا، ترى ان التحديات التي تفرضها الحياة المعاصرة، خصوصا ما يتعلق بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، تتطلب تنمية مهارات التفكير الابداعي عند الطفل. وعليه، ينبغي للتربية التركيز على تعليم الافراد طرائق التفكير، بدلا من تقديم الحلول الجاهزة لهم وتبديد طاقتهم في التلقين والاستظهار. فـ"افضل انواع التفكير الملائم لانسان القرن الحادي والعشرين هو التفكير العلمي الاستراتيجي، المبني على النقد وحسن الاصغاء الذي يجعل تفكيره فعالا ومنتجا في المواقف التي تواجهه".

هذا ما يحصل في النظام التربوي في الدول المتقدمة، حيث التربية تؤدي وظيفتها الاقتصادية والاجتماعية. لكن ماذا عن دول العالم الثالث؟ ماذا عن العالم العربي، وتحديدا لبنان؟

ينتمي لبنان الى دول العالم الثالث التي تتميز ـ بحسب الكاتبة ـ بانها بلدان شديدة التنوع والاختلاف في التمدن ومستوى التقدم الاقتصادي والاجتماعي. كما تتميز بانها كانت مستعمرات سابقة. وهذا ما يشكل اساس مشكلاتها الراهنة لانها ما زالت مسيرة بالضغط الذي تمارسه عليها الدول المتقدمة. نتيجة ذلك، يسود في هذه البلدان ما يسمى بالاغتراب الثقافي الذي ترعرع فيه جيل من المسؤولين عن البلد. اعتبر هؤلاء النماذج الثقافية الغربية افضل انماط التقدم والتطور، فساروا ببلدانهم مقلدين النماذج الصناعية الغربية التي خالوا انها تؤدي الى التقدم والرخاء الاقتصاديين. كما وجهوا النظام التربوية المدرسية في هذا المنحى. طبعا، لم يتحقق التطور المشتهى نتيجة جملة اسباب على رأسها انعدام التخطيط الشامل. اضف الى ذلك التفاوت الهائل بين الطبقات الاجتماعية، وتعزيز امتيازات الطبقات الميسورة على حساب تلك الفقيرة، مما ادى الى الاضطرابات وغرق المجتمع اكثر في وحول التخلف. كذلك، تسبب هذا الاغتراب الثقافي في اشكاليات نفسية وازمات تنموية، نتيجة نسخ المنهاج التربوي عن نظام البلاد المستعمرة، من دون اخضاعه لاي تمحيص او تغيير او تعديل.

لكن العنصر الاهم من كل ذلك، هو سؤال تطرحه الباحثة قبل تشريحه وتقديم الاجوبة: كيف يستخدم المسؤولون المدرسة اداة طيعة لترسيخ المفاهيم التقليدية في اذهان النشئ؟ ترى نصار ان الجزء الاكثر قتامة في كل هذه العملية يكمن في ان المسؤولين ينظرون الى المدرسة بصفتها وعاء ايديولوجيا تمرر فيه منظومة من القيم والمبادئ التي تلقن للطفل،

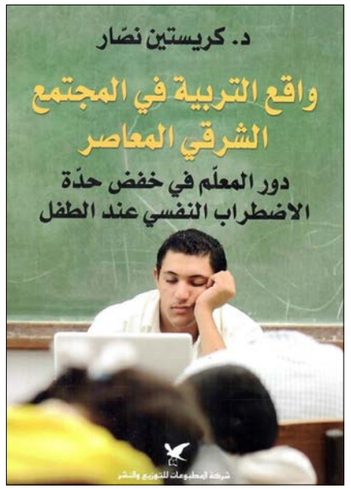

غلاف الكتاب.

> **كتب القراءة تغرس واجب الطاعة في نفوس الاطفال**

فيكبر ليصبح مواطنا يمتثل لشبكة العلاقات الهرمية في مجتمعه.

تستدل المؤلفة بدراسة سوسيولوجية اجرتها الباحثة اوغاريت يونان تحت عنوان "تكامل نماذج السلطة، انتقال نماذج السلطة العائلية عبر الكتب المدرسية" (معهد العلوم الاجتماعية ـ الجامعة اللبنانية ـ 1983). في هذه الدراسة، برهنت يونان ـ بالمعاينة والتوضيحات الميدانية الواقعية ـ كيف ان مناهجنا المدرسية تكرس امتثال الفرد لمختلف اشكال السلطات والعلاقات الهرمية القائمة في المجتمع، في غياب اي حس نقدي، او وعي لذاته وواقعه وتمرده عليه.

اتخذت الباحثة ستة كتب للقراءة العربية. اولا، في ما يخص السلطة الدينية، خلصت الباحثة الى انها تحتل 27% من مجمل محتويات الكتب موضوع الدراسة. تشتمل هذه الكتب على الصور والرموز الدينية، لتعزز الاتكالية السلبية اكثر من "الدعم الايجابي البناء لانسان معاصر". فتكرار عبارات الاتكال على الله وانتظار ان تأتي الارزاق من عنده، يولد مجتمعا غيبيا متعلقا بالسماء اكثر من الارض، ولا يعزز ثقة الطفل بنفسه وارادته للعمل من اجل التطور. تأتي صورة المعلم في كتب القراءة لتزيد الطين بلة، فالصورة المتداولة والمتكررة في غالبية هذه الكتب، تظهر المعلم في مدرسة الايام الخوالي (تحت السنديانة...) في مقابل غياب تام للمدارس المعاصرة.

تعزز هذه الكتب صورة المعلم صاحب الحقيقة المطلقة الذي يجب ان يطاع من دون جدل او نقاش (عبارات من قبيل "المعلم هو صاحب الحق والسلطان في ان يدير عقول الصغار..."، "المعلمون هم قادة الشعوب"). عليه، فالنظام التربوي يغرس في الطفل مبدأ الطاعة العمياء. ايضا الى الزمن الغابر تنتمي الرموز الوطنية التي تذكرها كتب القراءة، اذ تستعيد سير ابطال مثل فخر الدين، واسكندر المقدوني، ونابوليون وهنيبعل، من دون ذكر اي امرأة قائدة. بذلك، يكرس النظام التربوي الماضي والتاريخ، غافلا صورا مضيئة من الحاضر، ضاربا عرض الحائط بالنماذج النسائية القيادية.

تشدد الباحثة على ان النماذج والرسائل التي تمررها هذه الكتب تولد العديد من المشكلات والازمات النفسية عند الطفل، متوقفة بالتفصيل عند كل منها. صحيح انها تشير الى ان هذه المناهج خضعت لكثير من التعديلات على فترات زمنية عدة، الا ان الذهنية نفسها ظلت المسيطرة من دون اي مراعاة للتطور والتغير والتقدم الحاصل في المجتمع، اوله دخول المرأة سوق العمل، بل تحولها معيلة اساسية للاسرة.

رغم الصورة السوداوية التي قد يبدو عليها نظامنا التربوي، خصوصا لجهة عجزه عن بناء مواطن عصري يتمتع بتفكير خلاق، الا ان كريستين نصار تعتصم بالامل. اذ تخلص الى ان مجتمعنا مليء باصحاب الكفايات. ربما ما يحتاج اليه فقط هو ذاك البستاني الذي تحدث عنه روسو.